

منشورات جامعة اليرموك
عمادة البحث العلمي
والدراسات العليا

إتباع الايقاع في اللغة العربية
مقاربة السنية في حركية اللغة

عبدالحميد الاقطش
جامعة اليرموك ، اربد ، الاردن

مستلة من
ابحاث اليرموك
« سلسلة الآداب واللغويات »
المجلد الثاني عشر ، العدد الثاني ، ١٩٩٤ ، ص ص ١٤١ - ١٧٧
جميع الحقوق محفوظة لجامعة اليرموك ، ١٩٩٤

إتباع الإيقاع في اللغة العربية
مقاربة ألسنية في حركية اللغة

عبدالحميد الأقطش

جامعة اليرموك، اربد، الأردن

ملخص

تتناول الدراسة بالبحث موضوع "الاتباع اللغوي الايقاعي" بهدف : بيان الصياغة الفنية التي تتكاثر بها أمثلته، وبيان دوره في تكثير الثروة المعجمية الخاصة بالعربية، وأيضاً بهدف الوقوف على الطاقة التعبيرية التي يستشعرها ابن اللغة وهو يتعاطاه في حياته اليومية.

وتقوم الدراسة على مادة لغوية تم تجميعها، بتفريغ ما سجله العمل الميداني عند القدماء الذين انشغلوا بمسألة الاتباع، وباستقراء ذاتي لمجموعة من النصوص النثرية التي كثرت بها الهندسة اللغوية في الألفاظ والتعابير، وباستنطاق خفي أحكمه – منذ زمن – كلما عايشت لغة مثقفين وكتاب ممتازين، وكذلك اهتمت الدراسة بمشافهة "لأناس من واقع الحياة اليومية كما هي عليه حاليا عند الناطقين بها في الأردن.

وحاولت الدراسة أن تنتفع في معالجة النصوص، بالبعد الثقافي التراثي، والثقافي الألسني المعاصر، وقبل مسرد المراجع توجد هوامش وتعليقات، تفيد بصورة ثانوية في خدمة الاطار العام للدراسة.

١. رؤية تاريخية

كانت الحاجة أكثر الحاحا لدى أهل الحل والعقد من المسلمين في القرن الثاني الهجري، نحو المسارعة في تأسيس مدرسة لغوية عربية، ذات طبيعة تربوية، تهتم بتعليم وتعلم لغة عربية فصيحة وموحدة[١]، تكون أداة للتواصل الثقافي بين العرب أنفسهم وبينهم وبين اخوانهم من المسلمين، أو مواليهم من أهل الذمة، وقد استثار أصحاب الأمر

جميع الحقوق محفوظة لجامعة اليرموك، ١٩٩٤

بهذا الخصوص عزم أهل العزم – بالثناء وجزيل العطاء– ونجحوا في فرض مستوى لغوي، رفيع في أعين الناس بمعانيه ومبانيه، وخضعت للنحاة وللغويين أقلام كتاب النثر، وبدرجة أقل صرامة خضع الشعراء، وعولج بالنحو فساد اللفظ، وبالمعجم فساد المعنى.

وكان التقدم في مجال النحو مذهلاً من حيث نضج المعالجة وثبات المصطلح، وسرعة الانتقال إلى برمجة تخصصات في اللسانيات النظرية، مثل نظرية العامل، والحذف والتقدير، والتأويل، والتعدد الإعرابي، وغير هذا من المسائل التي تفلسف اللغة أكثر مما تعلم محاكاتها[٢]. وفي المقابل كانت نشاطات مسار المعجمة تتراسل بتؤدة أقل من مدرسة النحو، وعلى حين وقف النحاة بالاحتجاج عند الفترة التي ضعف بها شأن البادية، فقلت الرحلة إليها في نهاية القرن الثاني الهجري، نرى اللغويين مستمرين في الاتصال مع البدو، لاسيما بدو جزيرة العرب، وبدو الجزيرة الفراتية إلي أواسط القرن الرابع الهجري، على نحو ما يفهم من صنيع الأزهري في تهذيب اللغة.

وكان جلّ الركاز اللغوي الذي تم على أيدي العلماء الأفاضل، ممن انشغلوا بالمعجمة مبكراً موجهاً – وفق معيار علوي من ذوي الأمر – إلى قصد التحكم في مسار اللغة، بما يخدم الدين الإسلامي ويخدم الهوية الوطنية، ولكي يمتد تواصل الأجيال بلغة مشتركة على مر الزمان، فما كان عملهم تسجيلاً لواقع الحياة اللغوية كما هي عند الناطقين بها، بل كان تسجيلاً لمفردات لغة الفكر والثقافة، مع عمد الانحياز إلى البداوة والتعرب[٣].

ويُستشف من مكتوبات مرحلة التدوين وجود خلاف علمي بين العلماء، حول الكيفية لا الماهية التي ينبغي بها تقديم التغذية المعجمية. فمن جهة هناك متعلم تحَصّل له اللفظ ويريد له شرحاً أو ضبطاً، ومن جهة أخرى هناك متعلم في ذهنه موضوع أو معنى، ويريد أن يجمع عليه ألفاظا. وكلا الأمرين بهما تداخل، وهما معا من حاجات التعليم الوظيفي للغة. ويظهر أن الفكر اللغوي الذي أعطى أهمية أعلى لفهم مفردات القرآن الكريم والحديث الشريف قد اتجه نحو معجمة تخدم اللفظ، على حين اتجه نحو معجمة تخدم الموضوع، الفكر الآخر الذي رام تعليم اللغة لغرض التواصل أولا.

ويشيع تقليديا مصطلح "معاجم الألفاظ" على صنيع فريق، ومصطلح "معاجم الموضوعات" على صنيع الفريق الآخر. وكانت معاجم الموضوعات إلى بداية القرن الرابع الهجري، هي النشاط اللغوي الأوسع انتشاراً والأكثر أهمية. وكان الفكر اللغوي المعجمي الأول شديداً في الصلابة بتوظيف اللغة نحو الجانب المحافظ من الأنماط الأدبية، ونحو جغرافية أناس تلك الأنماط، شأن العهود الكلاسيكية الغابرة في أوروبا، وصنيع المدرسة اللغوية السكندرية الإغريقية في مصر في القرن الرابع الميلادي[4]، والباحث سيعود خالي الوفاض إذا هو رام رسالة في الإتباع اللغوي على موائد علماء ذاك الأوان، إذ الإتباع اللغوي لا ثمرة عملية له تفيد في تقويم لسان أو تصحيح كتابة، بل له طاقة تعبيرية مُحَسَّة في لغة الحياة اليومية. والخاصة كانوا وما زالوا يَزْوَرُّون عن تثقيف الناس ببيان من لغة العامة؛ وإذا هم عدوا الإتباع اللغوي من أذواق العامة فمن الطبيعي أن يعرضوا عنه، وأن يحرصوا على أن لا تظهر ترجمات أفكارهم إلا بوسائط اللغة الفحصى.

على أن الكاتبين في المَعْجَمَة العربية قبل القرن الرابع الهجري، وإن انشغلوا بمفردات اللغة الفصيحة، فقد ذخرت مكتوباتهم بأمثلة من مفردات العامية، وبأمثلة إتباعية متداولة كتداول الشواهد النحوية. وكان الاحتفال بتلك الأمثلة على شاكلة الاحتفال بالغريب والنادر من كلام العرب، ومن الأعلام الذين رووا إتباعات لغوية : أبو عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ)، والفراء (٢٠٧هـ)، وابن الأعرابي (٢٢٣ هـ)، وأبو حاتم السجستاني (٢٥٤ هـ). وأبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (٢٢٤ هـ) وهذا الأخير يعد أكثر الشخصيات بروزاً في حقل الغريب، إذ هو بحق عصارة الأشياخ الأعلام قبله، والأمام الثَّبتْ للكتب التي أُلفت بعده، وكتابه المهم في هذا الباب من علم اللغة هو "الغريب المُصنَّف" تقول الرواية إنه ألفه في نحو أربعين سنة، وبه عقد بابا للإتباع وفسر إتباعاته بعناية وحذق، ومعلوم أن أبا عبيد مختص ومُتمرِّس جداً في تفسير النادر والغريب.

حين أقبل القرن الرابع الهجري كان العلماء قد تواضعوا على الانصراف عن جمع اللغة، وتوقف الاستشهاد - فلا خلف بعد السلف - واتجه الفكر اللغوي إلى نشاط جديد يعيد مناقشة المادة المتاحة، ويخرج منها بحوثاً جديدة. وصارت صناعة المَعْجَمَة مجال

التمرين على إظهار التفوق والبراعة، حتى ليعد القرن الرابع بحق قرن المعاجم العربية، ففيه ألف أكبر عدد منها، وفيه أُفردت لظاهرة الاتباع أبواب خاصة ضمن تلك المعاجم. فعل ذلك ابن دريد (٣٢١ هـ) في جمهرته، وأبو علي القالي (٣٥٦ هـ) في أماليه، وابن سيده (٤٥٨ هـ) في مخصصه. وألف أبو الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) مُذَكِّرة في الاتباع، وألف ابن فارس (٣٩٥ هـ) مذكرة مشابهة، وجمع السيوطي (٩١١ هـ) جهود السابقين في كتاب أسماه "الإلماع في الإتباع" وإلى ذاك الأوان توقف رصد الظاهرة وتوارت إلى الظل من اهتمام اللغويين.

٢- مفهوم الإتباع لغويا واصطلاحياً

الوقوف على مفهوم الاتباع، وتتبع تطوره بمنهاج علم الايتمولوجيا اللغوية (Etymologie) يستوجبان من الباحث أن يعرف الدلالة اللغوية التي يحملها الجذر الاشتقاقي لمادة "تبع"، وأن يعرف الدلالة الاصطلاحية للمادة عند أهل صناعتها ممن صيّروا الإرث اللغوي في هذا الباب عِلْما. وتكاد الدلالة اللغوية لمادة التاء، والباء، وما يثلثهما وهي العين تدور على أصل واحد، لا يشذ عنه من الباب شيء وهو "التُّلُو والقُفُوّ"، كما عبر عن ذلك ابن فارس صاحب معجم مقاييس اللغة، فأما الدلالة الاصطلاحية عند القدماء فكانت غير مُتوحِّدة. وقد أمكن لنا بعد إمعان فكر أن نتبين إمكانية حدوث تطور تاريخي في الرؤية الإتباعية، مما أدى بالتالي إلى تعددية اصطلاحية، ونتصور الأمر وفق النحو الآتي :-

- مرحلة أولى فيها يتوافق المعنى اللغوي مع الاصطلاحي في الإشارة إلى عملية كلامية بها تكرار يحاكي العبارة المسموعة نغما لا دلالة، ويكاد القياس يكون مطرداً على أن يُصنَّف من الاتباع كل مركّب لغوي متكون من دالين لهما دلالة أحادية مفادة من اللفظ الأول، فأما اللفظ الثاني فمفرغ من أية دلالة معجمية، ولكنه على نسق وصياغة الأول شكلياً - هكذا يُفْهم من مرويات علماء التدوين الأوائل، أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي، ويفهم من مرويات علماء التنظيم اللغوي الذين أعقبوهم مثل الفراء والهروي وثعلب، وفي صفحات لاحقة ستُخص هذه النقطة بمزيد من المعالجة.

- مرحلة ثانية استمر فيها مفهوم الإتباع بالنهج السابق، ولكن مع بداية نامية لتوسع في مفهوم معني التلازم بين الدالين، فصار يندرج في الباب نشاطات لغوية بها دالان لغويان، لكل واحد منهما دلالة معجمية مستقلة به. وهكذا تُفهم مرويات الإتباع عند ابن دريد والثعالبي وابن سيده والجوهري، وستخص هذه النقطة بمزيد من البحث أيضاً.
- مرحلة ثالثة فيها صار المعول في منهجة الإتباع منصباً على معنى الدال الثاني من مركب الإتباع، فما كان بلا دلالة معجمية فهو باق تحت مصطلح "الإتباع" شأن المرحلة الأولى، وما كان واضح المعنى أو يمكن أن يكون له بِلُطْف الصنعة معنى فهذا الصنف كان من النقاط الساخنة، وبُؤَر التوتر عند القدماء، فمن مدرج إياه في الإتباع ومن مخرج له إلى أبواب أخرى غير إتباعية مثل التوكيد والمشاكلة والمماثلة ونحو من هذا.

ونحن نحتاط في هذا التوزيع الثلاثي مؤكدين أنه توزيع اصطلاحي، إذ لا نزعم أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى كان يجري سريعاً وحازماً، بل كان يقع قليلا قليلاً وربما بقيت رواسب موروثة في كل مرحلة من أختها، وتلك مسألة مقبولة جداً في الدراسات اللغوية المعاصرة، (وتوصف بالنماذج "المُتحجِّرة) وعند البلاغيين والنقاد والقُرَّاء والمُفسِّرين ترد مصطلحات إتباعة لكنها ليست محط اهتمام هذه الدراسة(٦).

٣- الصياغة الفنية

لكل لغة من اللغات الطبيعية هيكل عظمي تنماز به عن غيرها، وتتعين لها وفق أطره الخارجية هويتها، التي لا تتغير كثيراً بما قد تتعرض له اللغة من عافية ونمو، ومن فساد وهرم. فاللغة والكائن الحي الذي تسكنه وجهان لشيء واحد. وكل متغير يعيشه المجتمع لابد أن ينعكس على اللغة سلباً أو ايجاباً. ومن المقطوع به أن اللغات لا تتصرف فيما تبنيه أو تفقده من ركازها اللغوي بطريقة واحدة، ولكل لغة وسائطها المعلومة لتكوين مفرداتها، وربما تقاسمت مع غيرها بعضاً من الوسائط لكنها تبقى مُسْتَحِبَّة لآلية معينة أزيد من غيرها.

ومن حقبة مبكرة أدرك اللغويون العرب الطريقة الفعّالة في توليد كلمات لغتهم، فخصوصاً بعدد وفير من الدراسات والمعالجات. وتلك هي طريقة "الاشتقاق" أكثر الوسائل حياة في الساميات جميعاً، ولا تزال تكتسب قوة لها مع الأيام، ويتحمس لها اللغويون الكبار، ويوظفونها في تكثير مفردات المعجم العربي من أصول عربية وغير عربية، ومعلوم أن طريقة "الاشتقاق" بها هندسة لغوية منظمة، حيث تحتل الأصول السواكن موقعية ثابتة، ثم يجري التوسيع من خلال وحدات لغوية معيّنة ومحدودة العدد، فتوضع من تلك الأصول في صورة زوائد إحاطة –سوابق أو لواحق– أو زوائد وسطية أو كليهما معاً.

وتحليلات القدماء اللغوية في أبنية المشتقات خاصة تُظهر منهجيتهم المتقدِّمة على مستوي اللغويات النظرية والتطبيقية معاً، فهم من جهة توصلوا إلى صياغة قوانين عملية بدرجة كبيرة بالنسبة إلى كيفية بناء المشتقات، ومن جهة أخرى قدموا بحوثاً نظرية شيِّقة حول أصل "الاشتقاق"، وكانوا خَصّوا مساق "التصريف والاشتقاق" بمفردات اللغة ذات القوالب الشكلية الجاهزة من الأسماء والصفات والأفعال، واستبعدوا المفردات التي تكون صُوَرُها الاملائية هي مبانيها الصرفية من الأدوات والظروف والضمائر.

وتراث كتب الأبنية الضخم يَنْتَظم فقط الأفعال والأسماء والصفات. وتُقَدَّر أبحاث متأخرة مفردات اللغة الثقافية من هذه الأجناس الثلاثة بسبعة آلاف مادة لغوية، ينتمي أكثرمن نصفها إلى فصيلة الاسم الدال على مسمى[٧].

ويتفق اللغويون على أن نشاط اللغة وحَرَكيَّتها والتغير في دمها، إنما يُرى في هذه المجموعة من القوالب اللغوية المتنامية. فالاكتشافات والمعرفة الجديدة والهجرات اللغوية وكل قَصْد إلي ظَرَف جديد في المأكل والملبس والمشرب ورشاقة الكلام وغير هذا مما تقتضيه أحوال الحضارة جميعه تتفاعل معه قوالب الصفات والأفعال والأسماء ولا تتفاعل معه قوالب اللغة الجامدة. من الأدوات والضمائر والظروف، لأنها مجرد وسائل ربط تتطلبها علاقات النظم في القوالب الأولى.

والألسنيون اليوم بدورهم لا يحتسبون من ميْكنة التغير اللغوي إلا الأجناس اللغوية المتنامية. وقد حققوا فيها نجاحات عالية على مستوى النظريات العملية والعلمية، فأما الأجناس الثابتة فهم يكتفون بالتركيز على جوانبها الوظيفية ويبتعدون عن تأصيلها اللغوي رغم ما قد حققوه في التأصيل من نجاحات(٨).

على أن التوليد اللغوي في الاشتقاق وإن كان المظهر السائد في صياغة أجناس اللغة المتنامية؛ فإنه ليس الطريقة الوحيدة فيها، لأنه توجد مفردات عديدة لا تعتمد في صياغتها على ما هو متاح في أنظمة الاشتقاق العادية، كما هو في مسألة (الرباعي من الأفعال والأسماء)، ومسألة (الدخيل والمعرب)، بل إن الجهود اللغوية العربية في معالجة البنية الصرفية لهذين النوعين من المسائل لم تحرز بَعْدُ تقدماً نوعياً، وما زال البحث فيهما دون المستوي المطلوب، ولا تزال الجهود اللغوية تتعامل معهما بطريقة وصفية إلا من جراحات تجميلية بسيطة.

وحصر جميع الوسائل التي تتخذها العربية في بناء ألفاظها معوز بعد لشيء أعمق من هذه الملحوظات العابرة، وليس هذا مقامها، ولكننا نخلص مما سبق إلى أنه توجد في العربية صور أساسية وأخرى ثانوية في صياغة المفردات اللغوية، كشأن كل اللغات في هذا الباب. وإلى الصور الأساسية تنتمي تراكيب جُمَلية وأخرى غير جملية مثل : تراكيب الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره. وهذان النمطان من التراكيب الإسنادية التامة المعنى، وهما قوام اللغة أصلاً، ومثل : تراكيب الصفة والموصوف، والعدد والمعدود، والمضاف والمضاف إليه. وهذ الأنماط من التراكيب غير الإسنادية، ولكنها كالأولى وفيرة وهامة وضرورية لكيان اللغة. فأما الصور الثانوية : فهي قليلة العدد قليلة الأشكال، ولا تحتاج إليها المستويات اللغوية الثقافية كثيراً، ولا يَخُصُّها الدارسون باهتماماتهم إلاّ عرضاً. وعادة هي تراكيب غير إسنادية ومنها في العربية : تلك التي تأخذ مسمي (أسماء الأفعال)، ومسمى (خوالف إفصاحية)، ومنها ما هذه الدراسة بصدد معالجته : وهو (مركب الإتباع)، ونحن نجرى الحديث عن صياغته الفنية وفق المحاور الآتية : أنماطه الشكلية، وعلاقاته النحوية، وتأصيل التابع، وحروف الإتباع، ومباني الإتباع، وأخيراً حركته الإعرابية.

أنماط الإتباع

نستطيع من خلال ما تجمع لدينا من الأمثلة أن نقول بوجود صنفين من الأنماط الشكلية التي تندرج تحتها المركبات الإتباعية، ونحن نفصل القول فيهما على النحو التالي :-

أ- نمط فيه العلاقات اللغوية قائمة على مبدأ المساواة بين المعاني. ونسميه "إتباع المزاوجة".

ب- نمط فيه العلاقات اللغوية قائمة على مبدأ التَّضْمين بين المعاني ونختار له تسمية "إتباع الايقاع".

إتباع المزاوجة

وأمثلة هذا الصنف قليلة في كتب التراث، والصياغة الفنية لمركبه سهلة؛ تقوم على وجود مركب متضام من دالين، لكل واحد منهما دلالة مستقلة في المعنى، والعرف اللغوي يجري على عرضهما معا. فإن ذكر الدال الأول استدعى الذهن تباعاً الثاني، مع لزوم أواخر الكلم في الدالين لِرَويٍّ واحد ولسجعة واحدة. وربما أحوجت المزاوجة في هذا المركب إلى إجراء تعديل في الصياغة الصرفية للدال الثاني، وأسفله نماذج منه :

- "سَقْيا ورَعْيا" وإيماناً ومَغْفرة للباكيات علينا يوم نرتحل. (إتباع أبي الطيب ص ٤٩)
- ماله مَالٌ ولا عَالٌ (إتباع أبي الطيب ص ٣٦).
- ومنه وظنه بعضهم حديثاً " من حَفَّنا أو رَفَّنا فَلْيَتَّرِك" (مجالس ثعلب ٤١٧/٢).
- لقد كان في نِحْيي عجوزك فاضح "وعَار شَنَّار" خزيه غير بائد (التنبيهات ص ٣١٦).
- وقال فيلسوف : "العقل أُمُور بالمعروف. ونُهُوٌ عن المنكر" (البصائر ٢٩٧/٤).
- يقال الرجال ثلاثة : "هَيِّن لَيِّن يُصْدِرُ الأمُورَ مصادرَها، وآخر يَنْتَهي إلى رأي ذي اللب والمقدرة. فيأخذ بقوله، وآخر "حَائر بَائِر" لا يأتمر لرشد ولا يطيع المرشد (إتباع القالي ١٥٦/٢).

وثمة صور ثانوية من إتباع المزاوجة منها ما يقوم على مبدأ الثلاثية في الاتباع، ومنها ما يقوم على مبدأ المساواة السلبية في المعاني.

* **المزاوجة الثلاثية** ، وهذه تحافظ على المساواة في المعاني، ولا تنحرف عن شكلية الوفاق والاتفاق في الوزن والرّوي . من ذلك :

- رُوي عن عقبة بن رؤبة قوله في فرس ابتاعه : هو الله "أشَقُّ أمَقُّ حَنَقُّ". قال الأصمعي معناه الطويل (المعاني الكبير لابن قتيبة ١/٣).
- رَوى أبو عبيدة عن الكسائي أنه يقال : "أخذه بِحذافيره وجَذَامِيره وجَرامِيزه" أي برمته، (التنبيهات ص ٢٧٥).
- وفي الحديث : "اللهم بارك لها في "مَحْضِنِها ومَخْضِها ومَذْقِها"، وابعث راعيها بالدُّثُر وبائع الثمر" (أسد الغابة، ٣/٩٦).
- وفي الحديث : قول النبي صلى الله عليه وسلم : "نِعْمَ الشَّرِيكُ السايبُ لا مُشاري ولا مَاري ولا صَخّاب" (الأزرقي ٢/٢٥٩).
- ويقال : "أجمعين أكتعين أبصعين"، (اتباع الحلبي ص ٧٣)، وهي عبارة كثيرة الورود في شواهد النحاة.

* **إتباع المساواة السلبية** ، والتساوي في هذا الاتباع هو من قبيل التباين في المعاني ومن أمثلته :

- نعوذ بالله من "الفرَح بعد التَّرَح" (إتباع ابن فارس ص ٦).
- قال عثمان : يا علي قم فاجلده، فقال علي : قم يا حسن، فقال حسن : "وَلِّ حارّها من تولى قارّها . (صحيح مسلم ص ٢٧٩).

من الأمثلة أعلاه يتضح أن هذا المركب يجري على معيار الصحة اللغوية في العربية، والحاجة لمثله إنما هي لتقوية المعاني بمترادفات يكون النغم فيها أمراً عذباً، يحرك أهواء النفوس، ويثير حُميا العواطف، على نحو ما يُلحظ من أثر الانفعالات في سماع النثر الخطابي، والشعر الرجزي وأب المكفوفين. وهذا الإتباع أَلْيَق بأدب السجع والصنعة، لأن جميع الألفاظ هنا لها مدلولات اجتماعية

معهودة ذهنياً، ولها اشتقاقات صرفية واضحة. ولسنا أبداً في هذه المركبات أمام مشكلة لا في الصياغة ولا في الدلالة. ولولا أن الكاتبين في الإتباع أوردوا الأمثلة أعلاه ضمن الإتباع، لما كتبناها، ولما توقفنا عندها.

الإتباع الايقاعي

- أمثلة هذه الطائفة من الإتباع هي التي عليها المعول في هذه الدراسة، وهي محل عنايتنا، إذْ هي التي يصدق عليها مصطلح "الإتباع" بالمعنى اللغوي للإتباع على نحو ما وضح من تقسيماتنا السابقة، ونورد على هذا الإتباع أمثلة موثقة بالصورة التالية:

* **إتباع إيقاعي. بلا رابط بين التابع والمتبوع.**

- وعَيْنٌ لها "حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ" وشُقَّت مآقيها من أُخَر. امرؤ القيس.
- إن جَرْيِ "حُطائِط بطائط" كأثر الظبي بجنب الحائط. (أبو الطيب ص ١٨).
- قلت لسعيد بن جبير: إن موالي كاتبوني، وشرطوا علي أن لا أخرج من الكوفة، قال: أرادوا أن يجعلوا عليك الأرض، حَيْصَ بَيْصَ". (الدولابي ١/١٣٧).
- وتفرقت سفن العدو "شَذَرَ مَذَرَ"، وكسبت شوانينا ست بُطس لهم فكسرتها، ووجدت فيها عدة من الرجال والنساء فأسرتها، (الفتح القسي ص ٣٨٣).
- وينزل فيه النساء مع الرجال في البحر "خِلْطٌ مِلْطٌ"، وهم في شُرْب ولَعِب، ورقص وزائد وناقص، (تاريخ ابن المجاور ص ١١١).
- روي عن عبدالله بن بريدة قال: قيل لأبي الأسود: أتعرف فلانا؟ قال: إنه "الأهْيَس الألْيَس" المُلدّ المُلَحَّس، إن أُعطي انتهز وإنْ سُئِل أرزّ (أخبار النحويين البصريين ص ٣٧).
- وهذه مسألة "الخاز باز": قال الجوهري: الخاز باز اسمان جُعِلا اسما واحداً وبُنِيا على الكسر لا يتغيران في النصب والرفع والجر. قال ابن أحمر :-

تَفَقَّأ فوقه القَلَع السَّواري وجُنَّ الخازُ بازُ به جنونا

وقد جوز الجوهري أن يكون من جُنّ الذباب إذا كثر صوته، وأن يكون من جُنَّ

النبات، واستعمله المتنبي كذلك في قوله :

ومـن الناس مـن تجوز عليـه شعـــراء كأنها الخـاز بـــاز
ويـرى أنـــه البصير بهـــذا وهو فـي العمـى ضائع العكاز

وقال الأصمعي : الخاز باز حكاية لصوت الذباب فسماه به، وقال ابن الأعرابي إنه نبت وأنشد لابن نصير :

رعيتهـا أكـرم عـود عـــوذا الصل والصفصـل واليعضيــدا
والخاز باز باز السنم النجـــودا بحيث يدعو عامـــر مســـعودا

وعامر ومسعود راعيان، قال : وهو في غير هذا داء يأخذ الإبل في حلوقها والناس، قال الراجز :

يا خاز باز أرســل اللهـازمـا إنـــي أخـاف أن تكون لازمـــا

وقيل : هو السنور حكاه أبو سعيد، (حياة الحيوان للدميري ١/١٨٩).

* إتباع ايقاعي برابط بين التابع والمتبوع

- هل غَيْرُ "هَمْزٍ وَلَمْز" للصديق ولا تَنْكي عَدُوَّكم منكم أظافير،(ابن فارس ص ١١).
- وأبوك لم يك عارفا لِوَطاتِه ما فَرْقُ "قَطاتِه ولَطَاتِه"، (ابن فارس ص ٢٣).
- ومن الدعـــاء بطول الأسى قـــولهم : "لا حَيَّاهُ الله ولا بَيَّاه"، ولا عَمَّره ولا أَبْقـــاه، (جواهر الالفاظ ص ٣٨٩).
- يقال : جمعت هذا المال من "حَسِّي وبَسِّي"، (البصائر والذخائر٤/٢٠٥)
- إني إذا مـا عَجَّرَ الوطواط، وكثر" الهِيـاطُ والمِياطُ" لا يَتَشكى مني السَّقـاط، (ابن فارس ص ١٥).
- وقلْت له "مَهْلاً وبَهْلاً فلم يُنِبْ لقولي وأضحى الغشُّ مُحْتَملا ضِغْنـــا (ابن فارس ص ٢١).
- عن أبي الطويل شطب الممدود أنه قـال : أتيت النبي فـقلت : أرأيتَ رجـلا عـمل الذنوب كلها ولم يشرك بالله شيئا ، ومع ذلك لم يترك "حَاجَةً ولا دَاجَةً" إلا اقتطعها

بيمينه، فهل لذلك من توبة؟ قال : هل أسلمت قلت : نعم. قال : ليفعل الخيرات ويترك الشرك، قلت : وعُذُراتي ومُجُراتي، قال : نعم،(الدولابي ١/٧٧).

- قيل لعبد المطلب في المنام : قل : اللهم لا أُحلها لمغتسل، وهي لشارب "حِلّ وبِلّ"، (التنبيهات ص ٢٧٧).
- وهذه مسألة الغلام مع الأصمعي : قال غلام يُقَعِّر في كلامه وأتى أبا الاسود يلتمس ما عنده، فقال له أبو الاسود : ما فعل أبوك؟ قال : أخذته الحمى فطبخته طبخا. وفضحته فَضْحاً، فتركته فَرْخاً، قال أبو الأسود : فما فعلت امرأته التي كانت تُجارّه وتُشَارّه وتُزارّه؟ قال :طلقها، فتزوجت غيره، "فرضيت وحَظِيَتْ وبَظِيَت"، قال أبو الأسود : قد عرفنا رضيت وحَظِيَتْ فما بَظِيتْ؟ قال : حرف من الغريب لم يبلغك، قال أبو الأسود : يا ابن أخي كل حرف من الغريب لم يبلغ عمك استره، كما تَسْتُر السِّنَّور خراها، (عيون الأخبار ١/١٦٤)، وعلق السيرا في بعد أن سرد القصة على "بظيت" بقوله : وهذه الكلمة لا أصل لها في اللغة، وهي حرف لم يُدْرَ في أي عش دَرَجَ، ولا في أي بيض خَرَجَ، ولكن يقال: حظيت المرأة عند زوجها وبظيت، وهذا إتباع (أخبار النحويين البصريين ص ٣٧).

العلاقات النحوية في مركب الإتباع الإيقاعي

إن العلاقات النحوية في مركب الاتباع الايقاعي عادية جداً، ومنسجمة مع نظام اللغة الثقافية، فالرتبة محفوظة في كلا دالي الإتباع، كما هي محفوظة في مركبات غير جملية مثل : الاضافة، الجار والمجرور، والتوابع جميعا فلا تسمح اللغة هنا بالتقديم والتأخير، وتوالي الألفاظ على نمط محدد يعد أمراً إجباريا. والتضام بين ركني الاتباع جائز فيه الفصل والوصل، كما هو جائز في مركبات لغوية عديدة مثل : مركب الاسناد، والنعت، والعطف، ولكن الفصل في مركب الإتباع له خصيصة الاقتصار على أداة معينة وهي الواو ليس غير.ونذكر أن التّضام من غير فصل هو الأكثر استخداما. وتعرف طريقة التّضام في الألسنية المعاصرة بالطريقة اللصقية، وهي وسيلة تتكاثر بها مفردات لغات مهمة في شرقي الكرة الأرضية مثل التركية والكورية، وهي أيضاً وسيلة تبني بها العربية

مركبات غير جميلة مثل : (قالي قلى)، و(أيدي سبأ)، و(حلْوٌ حامِضٌ)، و(أَحَدَ عَشَرَ)، و (صباحَ مساءَ)[٩].

أما العلاقات اللغوية غير النحوية - الخاصة بالصياغة التأصيلية - فظاهرة في مركب الاتباع مُلْفِتَةٌ للنظر ومثيرة لجدلية ستظل تجتذب اهتمام اللغويين، إذْ الدال الثاني من الاتباع الايقاعي مفرغ من أية دلالة معجمية. ولا يصدق عليه مفهوم عبارة لغوية طالما هو لا يحمل بحد ذاته إضافة ما إلى مضمون أو معنى معين. وعلى حين توجد صورة مُدْرَكَةٌ للدال الأول من الاتباع فإنه لا توجد هناك صورة مدركة في الدال الثاني، فهناك رمز صوتي، وهناك رسم إملائي، ولكن ليست هناك صورة ذهنية، فما معنى؟ بل أية صورة للمفردات (بَسَنْ ولَيْطان وأصاة)؟ في المركبات : (حَسَنْ بَسَنْ)، و (شيطان ليطان)، و (حصاة أصاة) ما اشتقاق هذه الألفاظ؟ وما تأصيلها؟ وهل هي وأمثالها من الغريب الذي لم يبلغ حتى أهل الصنعة من اللغويين على حَدّ المناكفة السابقة بين الغلام والأصمعي؟ قد كانت مداخلات القدماء حول هذه الجدليات واهية وهامشية، ونحن نتقدم في حلها بطرح جديد.

تأصيل التابع في مركب الإتباع

- ليس ثمة جدال بأن الدال الأول من مركب الإتباع هو نقطة الارتكاز في هذا المركب، وأن الدال الثاني مجرد نظير حائم في فلك الأول، وبه يتأثر في الميزان والروي، وعلى نسقه تنبني صورته الصرفية، وبآلية سهلة وعفوية. فتُؤخذ عبارة لغوية ما، ثم تكرر في رتابة تسمح بتغيير الصامت الأول منها إلى حرف من الحروف المتوسطة - أو المائعة[١٠]، فيكون الناتج مركباً إتباعياً هكذا في : (عَطْشانْ نَطْشانْ)، (هَرَجْ مَرَجْ)، (حابِلْ ، نابل) فالفرق بين كل دالين يكمن في حرف بعينه، وذاك هو الذي يتصدر الدال الثاني مما يؤدي إلى ولادة مبنى جديد مساو للأول في النغم، ومختلف في الوقت نفسه عن أن يكون تكراراً لفظياً له كأنواع التكرار اللفظي المعتادة في اللغة الفصحى. والقيمة الدلالية في كلا دالي الإتباع تكمن في الصورة الصوتية المسموعة من كليهما، بل إن رقي الدال الثاني إلى مستوى عبارة لغوية مفيدة هي مسألة مصادفة محضة. وسترد

ملحوظات أخرى حول هذه النقطة عند بيان الطاقة التعبيرية لمركب الإتباع، ويمكن أن نعرض ولادة مركب الاتباع بالنموذج التالي :

ناطق لغوي: ← مرحلة أولى: فكرة + إدراك + عبارة لغوية = خرابيش
← مرحلة ثانية: فكرة + عفوية + عبارة سمعية = برابيش

حروف الاتباع

ملحوظة لا تخطئها الأذن ولا تتعداها العين، وهي أن الصامت الأول من الدال الثاني من مركب الاتباع يكون عادة من مجموعة الأصوات المائعة، وهي أصوات مجهورة في العربية وفي اللغات الأخرى الثقافية الكبرى، مثل الألمانية والإنجليزية، وتلك ميزة تعطي التابع -حين يبتدىء بها -وضوحاً سمعياً خاصاً، فمخرج الصوت المجهور يسمح بمرور الهواء في جهاز نطق الانسان مع دوي حاد، بسبب من ذبذبات الأوتار الصوتية التي لا تكون محكمة الإغلاق.

وقد أمكن لنا حصر أصوات معينة تتكاثر بها الأمثلة الاتباعية وهي :الميم والباء واللام والنون والهمزة والواو والياء[11].

صوت الميم : وهو صوت مرقق مجهور شفوي خيشومي، ينفتح معه عنق الحلق ومجرى الأنف مما يولد عذوبة مسموعة، وهذا الصوت يساهم في تكوين نسبة تقارب ثلث أمثلة الاتباع التراثي. مثلما سيظهر من الجداول الملحقة. ويكاد صوت الميم يكون وحده هو المستخدم في توليد إتباعات تكثير التعداد في الذوات من الأشياء في اللغة العامية، كما هو في : (خَزانةٍ ومَزانةٍ)، (فرشة ومَرْشةٍ)، (طاولة وماولة)، (فستان ومستان). وهلم جرا، حيث التابع الثاني لا يعدو وظيفة القيام باظهار التلاعب الخادع بما يوهم كثرة تَخَيُّلِية لا واقعية.

وصوت الميم يولد نسبة تقارب النصف من إتباعات لغة العوام في الأردن. ومما

سمعناه مشافهة قولهم : (قَحْطْ مَحْطْ)، (حيًّا الله ميًّا الله)، (كاني ماني)، (لا حاشا ولا ماشا)، (زلط ملط)، (هاق ماق)، (زيق ميق)، (سرِّي مرِّي)، (بين حانا ومانا).

صوت الباء : صوت شفوي مرقق مجهور شديد يتحقق بانطباق الشفة السفلى مع العليا انطباقا تاماً، وبه يغلق شراع الحنك الرخو مجرى الأنف فلا تحدث الغنة، وكان القُرَّاءُ تعجبهم صفة الجهر والشدة في الباء، ويرون في ذلك وضوحاً سمعياً، ينفعهم في حاجة الترتيل والتجويد لنصوص القرآن، وحرصاً على إبقاء خاصية الجهر أوجبوا في الباء القلقلة إن وقعت ساكنة، مخافة ضياع الجهر من الباء وتحولها إلى حالة الهمس كما هو في نطق كلمة "عُجابْ" في حالة الوقف، إذْ لولا الجهر يمكن أن تسمع "P"

والباء توظف تقريباً في توليد خمس أمثلة الاتباع التراثي على نحو ما يظهر من الجداول اللاحقة، وفي العامية: ترد الباء آلية مساوية للميم تماما. وهما معاً الأداتان نواتا الأثر الفعال في توليد إتباعات عاميتنا في الأردن، ومما سمعناه بهذه الآلية.

- (سُكْتُم بُكْتُم)، (صلْدُم بلْدم)، (شـيله بيله)، (حَدَرة بَدَرة)، (لَقَّاق بَقَّاق)، (خـوش بوش) (خِيطي مِيطِي).

صوت اللام : صوت مجهور مرقق في الغالب له مخرج باعتماد أسلة اللسان على لثة الأسنان العليا، ويمر تيار الصوت المجهور في المجرى الجانبي من تجويف الفم مما يعطي الصوت وضوحاً أزيد. وكان الأصواتيون العرب قد صنفوا اللام فمن مجموعة الأصوات اللينة وهي : (اللام والنون والراء والميم والواو والياء) وجمعت في عبارة لغوية مصنوعة "يرملون" واهتمام علماء التجويد بالعبارة ملحوظ. وفي الألسنية المعاصرة تحظى هذه المجموعة من الأصوات بعناية خاصة، حيث تؤكد الأبحاث اللغوية أنه قلما تخلو كلمة عادية من أحدها سواء في العربية أو في غيرها من اللغات الانسانية، وهي أصوات توظف في تكبير المفردات لاسيما أبنية الرباعي، وفي تصغير المفردات لاسيما أبنية الأسماء الثنائية الصوامت، وهي كذلك الأصوات التي تصنع الأمثلة الاتباعية.

وتشغل اللام كذلك نسبة خمس الأمثلة التراثية تقريباً، فأما في عامية الناس فهي

ذات وجود، ولكنه قليل نحو : (خَبَايِصْ لَبايِصْ) (حايِصْ لايِصْ)، (خَبْطَة لَبْطة)، (لا كُماج ولا لماج).

صوت النون : ينطق مرققاً مجهوراً مع الغنة الخيشومية، وهو صوت شديد الحساسية والتأثر بنوعية الأصوات المجاورة له، وينتقل بمخرجه غالباً إلى مخرج الصوت التالي له في حالات معروفة عند القُراء، وللنون عذوبة في السماع إذا ما كُرِّرت أو أطيلت مدة اعتماد تيار الصوت في مخرجها، والقرآن الكريم يَحْفَلَ بالنون كثيراً، ولعله أكثر الأصوات لزوماً عند الفواصل القرآنية[١٢]، وأمثلة الإتباع المتولدة بصوت النون غير قليلة، وله بضعة أمثلة في عامية الناس في بلادنا، من ذلك : (شَطَّاط نَطَّاط)، (هَشْ نَشْ)، (حَشْفَة نَشْفَة).

صوت الهمزة : الهمزة العربية وقفة حنجرية تنطق عند إغلاق الأوتار الصوتية إغلاقاً تاماً، مما لا يسمح بحدوث الاهتزاز اللازم لصفة الجهر، ولكن يسمح بالنبر اللازم لصفة الانفجار، نتيجة الفك بعد الاغلاق في نطق الهمزة، وهذا الصوت يُحشر مع أصوات الاتباع رغم مخالفته في صفة الجهر، ونظن ذلك بتأثير المجانسة الصوتية التي تستدعيها حروف الحلق، وهي حروف تُسْتَحبُّ حركة الفتحة معها، والهمزة قريبة في السماع من نطق الفتحة، وقد لاحظنا ورود صوت الهمزة – في التراث الاتباعي– يرد مع مفردات أولها حروف حلق من ذلك :

(عَيْمان أيْمان)، (عَيْص أيْص)، (حانَّة آنَّة) وهذا يؤكد أن الهمزة جاءت بتأثير العين والحاء.

صوتا الواو والياء : هما من أهم الأصوات "المتوسطة" وكلاهما مجهور لكنهما يختلفان في المخرج، فالواو طبقية والياء غارية، ويكثر ظهورهما أن يكونا نقطة إغلاق في نهاية مقطع، أو معبراً لصوت تالٍ لهما، مما يولد ما يُعرف بالمزدوج الواوي أو اليائي (ya-ay+wa-aw) وهذا المزدوج له وظيفة الصامت تماماً، وبه تتولد الأمثلة الإتباعية ولم نلحظ على هذين الصوتين أمثلة في لغة العامة .

مباني الاتباع الايقاعي

أسلفنا القول بأن الصيغ الصرفية المتنامية – المتصرفة – من الصفات والأسماء والأفعال هي وحدها التي تقدم أمثلة إتباعية، والصفات هي الأكثر استخداماً، وتليها الأسماء، فأما الأفعال فقليلة جداً، ومعنى ذلك أن العربية تعرف ثلاثة مبان إتباعية هي :

أ- صفة + صفة ب- اسم + اسم جـ- فعل + فعل

ودلت الملاحظة أن أوزاناً محددة هي التي يختارها الناطق اللغوي العربي عند إرادته إشباع حاجته من الإتباعات كما يُظهر ذلك الجدول التالي :-

	المبـــــــاني									
نوع الإتباع	فاعِل	فَعيل	فَعِل	فَعْلان	فُعَلَه	فَعْل	فَعَل	فَعال	فُعْل	المجموع
وصفي	١٨	١٧	١٦	٦	٤	٢٠	٧	–	٤	٨٢
اسمي	–	–	–	–	–	١١	٥	١١	٤	٢١
فعلي	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٩

ولنا على الجدول أعلاه ملاحظتان : الأولى حول دلالة الاتباع، والثانية حول مبناه، فقد وردت مفردات التمثيل على المباني السابقة – في كتب التراث الاتباعي – متضمنه فكرة الدلالة على الأحداث لا النوات، وتوزعت الدلالة على معني الوصفية في ثلثي المفردات تقريباً، وعلى معنى المصدرية في ثلثها، وثمة بضعة أمثلة تَقَبَّلت معني الفعلية، وهذ الملحوظة ذات قيمة في فهم الطاقة التعبيرية التي لأجلها يساق مركب الاتباع كما سيرد لاحقاً.

وقد جاءت مباني التمثيل – عدا واحدة – من تلك التي تخضع في اشتقاقها إلى آليه التحويل الداخلي[١٣] حيث تنشط الحركات القصيرة أو الطويلة لبناء الألفاظ من الجذور من غير استعانة بسوابق أو لواحق تزاد قبل أو بعد أو وسط تلك الجذور، والحركات التي انتظمتها أمثلة الإتباع كانت ثلاثية، وهي عدمية "السكون" وقصيرة وطويلة، ويمكن

بيساطة رؤية التحويل الداخلي في السلم التالي :

فَعْل بمقطع واحد يتحول الى (فَعِل) بمقطعين في كل منهما حركة قصيرة ويتحول إلى فَعيل بمقطعين. بحركة قصيرة في الأول وطويلة في الثاني هكذا : (فَعْل ــــ فَعِل ــــ فَعيل). ومثله أيضاً : (فَعَل ــــ فَعال ــــ فاعِل) فواضح أن الكلمة الواحدة بتغيير في كمية وموقع الحركات، يمكن أن تنتقل إلى كلمة أخرى، مختلفة في الوزن متفقة في المعنى من ذلك :

* (سِمْج لمج - سَمِج لمج - سَمَاجَة لماجة - سامِج لامج) وجميع هذا يرد في وصف الشره الأكول، (ابن فارس ص ٥)، (أبو الطيب ص ٧٦).

* (حَقْر نقر - حَقِر نقر - حَقير نقير - حَقارة نقارة) وصف لِظَلّع يُصيب الغنم، ثم صار يطلق علي كل شيء تافه، وقد ورد هذا الوصف في قصة السنور والأرنب التالية : زعموا أن الوَبْرَةَ -الورر- والأرنب اسْتَبَّتا، فقالت الوبرة للأرنب: أذنان وصدر وسائرك حَقْر نقر، فقالت الأرنب للوبرة:عجز وأذنان وسائرك أصلتان ، أي منجرد من اللحم والشعر، وهذا من أكاذيب العرب (المخصص ١٤/٣٢)، (إتباع أبي الطيب ص ٩٧).

الحركة الاعرابية في مركب الإتباع

تقتضي الصحة اللغوية في العربية الفصحى أن تتزود كل مفردات هذا المستوى وطنية وأجنبية بحركات إعرابية معلومة، وذات موقعية ثابتة لا تبديل فيها وإتقان تلك الحركات ووضعها في أماكنها قد كان ولا يزال من مظاهر الفصاحة العالية، فالأمثلة الاتباعية التي تهجر موقعها الأساسي في اللغة الحوارية العامية، وتدخل في مستويات لغة الثقافة، عليها بالضرورة أن تهجر عدمية الحركة المميزة للنطق العامي، وأن تَجْتلب لنفسها حركة مناسبة ومنسجمة مع قواعد الفصحى. وفي هذا المقام يلحظ أن الدال الأول من مركب الاتباع هو الذي يلعب الدور الفعال في تَقَبُّل الحركات الاعرابية، أما نظيره الآخر فهو سلبي الارادة ويتقبل فقط الحركة ذاتها في الدال الأول على نحو ما هو في المثال الآتي من نادرة أبي زيد، (مجالس ثعلب ١٩٨/١).

تَجانَفَ رضوان عـــن ضيفــه ألم يأت رضــوان عنــي النــذر
سَلِيـخ مَلِيـخ كلَحْم الحــــوار فلا أنـت حلــو ولا أنــت مـــر

فكلا الدالين : (سليخ مليخ) لهما حركة إعرابية واحدة وهي (الضمة). ولا ينبغي أن يُفهم التشابه في حركة الدالين على نسق التشابه في باب النعت والمنعوت بل على نسق التشابه في مركب العدد من (أحدَ عشرَ إلى تسعةَ عشرَ). مع ملاحظة أن حركة مركب العدد لازمة الثبوت في جميع السياقات، وحركة الاتباع تتنوع وفقاً لتنوع السياقات، وتقريباً فإن حركة الاعراب هي المطردة في إتباع التراث سوى أمثلة أربعة نَصَّ القدماء على لزومها حركة البناء، ويبدو أنها أمثلة كانت شائعة جداً من فترة مبكرة، فانشغل اللغويون بتقعيدها بعينها. وقدموا في ذلك معالجات لا جرم إن أثر الصنعة ظاهر بها والأمثلة هي : (حَوْثَ بَوْثَ) (حيصَ بيْصَ)، (شَذَرَ مَذَرَ)، (والخاز باز).

وعلى الرغم من أن كتب التراث تقدم الأمثلة في نماذج لغوية غير عملية كأن يقال : ركب القوم "حَوْثَ بَوْثَ" إذا لم يُدرَ أين هُمُ، على رغم ذلك يذكرون أن المركب يجوز فيه ثماني لغات [14] هي : (حَوْثَ بَوْثَ، حَيْثَ بَيْثَ، حاثَ باثَ، حَوْثُ بُوْثُ) حَيْثُ بيثُ، حاثِ باثِ، حَيْثِ بَيْتِ، حوثاً بوثاً). والوجوه هذه تصدق على "حيص بيص" ذاك المثال الذي لايزال يسمع بشغف من ألسنة العامة، وكان قد ارتفع إلي مستوى الفصيح من خلال بيت من الشعر غريب :

قد كنت خَرَّابا ولَّوجــا صيْرفــا لم تَلْتَحِصني حَيْصَ بَيْصَ لَحَاصِ.

٤- مساهمة الإتباع في تكثير الثروة المعجمية العربية

لايكون المرء مغاليا حين يصف الجهود اللغوية التاريخية في مسألة الاتباع بأنها معجمية الطابع تهتم بالمثال وبتفسيره، وكان القدماء قد عدوا الإتباع أساساً ضرباً من الغريب والنادر - ولا مشاحة في ذلك - وكانت مسألة الغريب تستهوي الناشطين من أهل الصنعة اللغوية آنذاك، فكانوا يَخِفّون إليها سراعاً، ويرون فيها ميدانا لاظهار البراعة وعلو الهمة مثلما ظهر في مسألة :"بَظِيَتْ" ومسألة "الخاز باز". ولكنه قد يقال : أنه طالما

دُوِّنَ بالعربية فهو من ركاز العربية، ونحن لاحظنا أن مسألة الاتباع قد زادت الثروة المعجمية من خلال المسارب الآتية :

أ- توليد التابع.

ب- تفسير التابع.

جـ- معجمة التابع.

د- التصحيف.

* أما مسألة "التوليد" في التوابع فقد وضح أثرها في زيادة الثروة المعجمية من خلال الفصل الخاص بحروف الاتباع وما بعده.

* **تفسير التابع** : لعب تفسير التابع في زيادة، ألفاظ المعجمة العربية حين حاول قدامى اللغويين أن يقعوا على دال اجتماعي للفظ التابع. وقد كانوا في مسلكهم هذا أسارى لفكرة التوأمة بين المبنى اللغوي والمعنى المعجمي، فقوة اللفظ عندهم مؤذنة بقوة المعنى، والألفاظ قوارب المعاني لاتزيد ولا تنقص، وفي هذا إغفال لجانب مهم من وظيفة اللغة، لأنها لا تختص فقط بالتواصل الاجتماعي العادي، وإنما لها نشاطات أخرى نفسية ونغمية، ونرى أن الأئمة الأعلام القدامى ما جادلوا أساساً في الألفاظ المرتجلة أهي صناعية أم طبيعية؟ وسلَّموا بأن غريب اللغة كمألوفها كلاهما ينبغي أن يكون من ولادة طبيعية. وعلى اللغوي أن يجهد فكرة كي يقف على أسرار اللغة هنا، فإذا لم تسعف الخبرة والممارسة الطويلة في إيجاد تفسير لغوي مقنع، فعلى اللغوي أن يتهم حصاته، فما بلغه من العلم قليل، وما المثال الذي يتعرض له بغريب، ولكنه وأمثاله من اللغويين في صنعتهم هم الغرباء. والمسألة أيسر من هذا بكثير، لأنه لابدَّ من التسليم بأن بعضاً من مفردات اللغة قد بني لأغراض خاصة، وارتُجلت له الألفاظ ارتجالا، وربما صُنعت الألفاظ صنعة.

وكتب التراث الأدبي تحتفظ بشخوص من البدو مشاهير في صناعة الألفاظ أمثال - أبي خَيْرَة، وأبي العِدْبِس وأبي فَقْعَسْ، وأبي القعقاع، وأبي الدُّقَيْش، وأبي الجَرَّاح، وأبي عَلْقَمة، وأم الهيثم - وغيرهم. ونورد هنا المناكفة، بين أبي علقمَة النحوي وأعين الطبيب :

دخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب فقال له : إني أكَلْتُ من لحوم هذه الجوازل فَطَسِئْتُ طسأة، فأصابني وجع ما بين الوابِلَة إلى دَأْيَة العنق، فهل عندك من دواء؟ فقال أعين : نعم خذ خِرْبَقا، وشِلْفقا وشِبْرقا، فأهرقة بماء رَوْثٍ واشربه، فقال أبو علقمة : لم أفهم عنك، فقال أعين : أفْهَمْتُك كما أفْهَمْتني، (عيون ٢/١٦٣). فالارتجال والصنعة في المثال لا يخفي أثرهما على كل عين بصيرة، ومع ذلك صارت هذه الألفاظ المرتجلة هي وتفسيراتها من الثروة المعجمية.

ونتأمل الأمثلة الآتية : قال اللغويون : معنى (بَيَّاك) : اعتمدك بالتحية ومنه قول الراجز

لمـــا تَبَيَّنا أخـــا تميـــم أعطى عطاء اللَّحِـز اللئيـــم

وقال الراجز :

بيَّا لهـم إذا نزلـوا الطعامـا الكبد والملحـاء والســـناما

باتـت تَبَيَّا حَوْضَهـا عكوفـا مثل الصفوف لاقت الصفوفـا

إني قرأت تفسير "بَيَّا" في كتب التراث الاتباعي، وقرأت الرجز، ولكن نفسي لا تشتهي هذا التفسير، ولا هذا الشعر الرجزي أبداً، وما لفظ (بَيَّاك) عندي إلا سجعة نغمية مُكرَّرة للفظ "حياك" فبدلا من قول " حياك الله جدا أو كثيراً" اتكأ ابن اللغة على آلية الاتباع الموجودة في عاميتهم آنذاك وفي عاميتنا وعامية غيرنا، فَوَلَّد بحرف الباء لفظة (بياك) الاتباعي وليس العكس؛ فالايقاع الاتباعي ولد لفظة (بياك)، وحاجة التفسير ولدت مشتقاتها الفعلية الواردة في الرجز. وجميع هذه الألفاظ لا شك دخلت في ثروتنا المعجمية، وصارت من مخزونها الثقافي. وللفظة «بياك» معان أخرى غير معنى "اعتمدك" فنجد القدماء يوردون المعاني التالية "بيا" : بمعنى قَصَد، وبمعنى قَرَّب، وبمعنى عَرَف، وقال الفراء بمعنى أنزلك منزلا في الجنة، وقال خلف الاحمر : لما جاءت مع حياك تَرَكَتْ "بياك" همزتها وحولت واوها ياءً وهي في معنى هيأك وبوأك.

- المثال الاتباعي "هو له حِلّ وبل"، (المزهر ٢/٤١٥)، قالوا معنى "بل" المباح بلغة حمير، ويقال "بُلّ" بمعنى الشفاء من المرض من قوله "بَلّ الرجل من مرضه.

إنه مثال يتردد في عاميتنا كثيراً ليدل على معنى مباح جداً، يقال : "حَلال بَلال" وربما زيدت تقوية اتباعية ثالثة "زَلال" ولا دخل للغة حمير، لا من قريب ولا من بعيد بالظاهرة، بل ليست اللفظة من معجم الحميرية الموروث، ولا هي جارية اليوم على ألسنة اللهجات المتناسلة من الحميرية القديمة كالشّحرية والجبّالية.

- وهذه طائفة أخرى من الإتباعات، رأي اللغويون القدماء فيها ثنائية في المعنى قالوا : لا يعرف (القَطاة من اللَّطاة)، وهما : الردف والجبهة وماله (عافِطَة ولا نافِطَة) وهما : الشاة والعنز وماله (سَعْنة ولا مَعْنة) وهما : الوَدَك والخبز وماله (سَبَد ولا لَبَد) وهما : الشّعر والصوف، وماله (حانَّة ولا آنَّة) وهما : الشاة والناقة، وأقبل (الحاجّ والداجّ) وهما : الحاج والتاجر، وما عندي (شَوْب ولا رَوْب) وهما : السمن والعسل، وفلان (سَفْل وَغْل) وهما : ضعف القوام وسوء الغذاء.

إنه لا يصعب على أحد أن يُقرِّر بَداهة، أن هذا النوع من العلم بالأخبار، والتقدير للأشكال، ليس موجوداً إلا في عقول الخاصة من أولئك اللغويين الذين قالوا بهذه الأخبار، فأما ابن اللغة الذي ولَّد هذه الأمثلة الاتباعية بآلية حروف الاتباع، فإنه يقينا لم يُرد بالتابع الثاني من هذه التراكيب أكثر من مجرد تَتِمّة صوتية، ولكن الثمرة تنعكس على أية حال على المعجم فَتَكَثّر ثروته.

* **معجمة التابع** ، ونريد بذلك فكرة ترتيب المواد في المعجم، وقد لعبت هذه الفكرة دورها في تكثير الثروة المعجمية، حيث ضرورة الترتيب على حروف الهجاء استدعت أحياناً توليد قوائم اتباعية مصنوعة كي تملأ فراغات جميع الحروف الهجائية. ظهر ذلك في مذكرتين، أولى من صنيع أبي الطيب اللغوي، ونعتقد أنه أول من خص الظاهرة بمذكرة يراعي فيها أن تتوالى الإتباعات وفق الترتيب الهجائي علي حسب الصامت الأول من الجذر. وظهرت المذكرة الثانية في الشطر الفارسي من الدولة الاسلامية في ولاية آل

بويه في بلاد فارس على يد ابن فارس الرازي، وقد رتّب مذكرته على الحروف الهجائية ولكن مع مراعاة الصامت الأخير من الجذر، وليس ثمة اتصال بين العملين، فالأول يسوق أمثلته الاتباعية على جميع الحروف عدا أربعة أحرف، قال : إنه لا توجد منها إتباعات وهي (الصاد والضاد والطاء والظاء)، ولكن الفارسي أورد على تلك الحروف إتباعات. وضرورة ملء الفراغات من الحروف : (التاء والثاء والقاف والكاف والعين) هي التي تفسر ورود الأمثلة غير العملية التالية : (ضَالّ - تَالّ)، (لا بَارَكَ ولا تَارَكَ)، (خَبِن- ثَبِن)، (حَسَنْ- قَسَنْ)، (عَنْظْ-كَنْظْ)، (واحد - فاحد)، (ثُلّ -غل)، وكل هذا يثري المعجم.

* **التصحيف** : مسألة التصحيف غير مُسْتَبْعَدة سواء وقعت من القدماء أنفسهم أو من المتأخرين الذين حققوا تراثهم، وبعض أشكالها قد يكون بسبب الكتابة وعدم تبين أشكال النُّقْط والحروف كما في الأمثلة : (خَازِن، مَازِن، جَازِن، َمازِن) و (مَحِيص، مَفِيص، مَقِيص) و (خالِد، تالِد، بالِد) و (مائِق، دانِق، رائِق)، (ابن فارس ص ٨)، (أبو الطب اللغوي ص ٢٣)، (القالي ٢/٢١٥).

وهناك تصحيف أصواتي يمكن وقوعه جداً بسبب قرب المخارج والتشابه في الصفات بين الحروف مثل : (شَكِس، نَكِسْ، لَكِسْ) و (خاسِر، دامِر، دابِر)، و (بَظْ، فَظْ، بَذْ) و(خِبٌ، طِبٌ، ظِبٌ، ضِبٌ) و (حارٌ، جارٌ، يار)، (القالي ٢/٢١٣). ونري أن الاتباع في (حار، جار، يار) له صلة بنطق الجيم قديماً، إذ يؤكد علماء الساميات أن تطوراً قد جرى على نطق الجيم في العربية قبل مرحلة نزول القرآن، فانتقلت بمخرجها إلى الأمام ومالت إلي التعطيش قليلاً كما هي عليه في نطق مجيدي قراءة القرآن، ونطقها بلا تعطيش ما زالت له رواسب في الساميات الأخرى، عند أهل اليمن وعند القاهريين في مصر، وكتابة ذاك الصوت العتيق لا تعرف له العربية صورة إملائية، فعربيتنا تعرف رسومات إملائية للفونات (Phonemes) وليس للألوفونات (Allophonemes) ، ولذا قد يكتب الألوفن (g) [١٠] في صورة الجيم أو الياء، وهي مشكلة لا نزال نعاني منها عند إرادة مطابقة الإملاء مع المنطوق في الألفاظ الدخيلة، والمثال السابق نظنه من العامية من إتباع المزاوجة لا إتباع الايقاع أي من "التحرى والاقرار" وفي لعب أطفالنا تجري القرعة ثلاثية، وتكون الثالثة

هي "الحارة القارة" - على نطقنا في الأردن - وتكون همزة وياء على نطق أهل المدن أو الخليج وبذا نرى أن التصحيف يزيد من الثروة المعجمية.

٥- الإتباع ظاهرة إنسانية

تؤكد اللغويات التاريخية المقارنة علي أن هناك عناصر لغوية مشتركة بين لغات البشر، منها ما يتصل بالأصوات، ومنها ما يتصل بالكلمات، ومنها ما يتصل بالتراكيب ويندرج تحت هذا المستوى الأخير ذاك الميل العام إلى تكرير الكلمات، أو مقاطع منها، وهو ما يعرف في الفكر اللغوي العالمي بظاهرة الاتباع (Reduplication) ولهذه الظاهرة : نماذج تتخذ آلية واحدة في اللغات المختلفة، ونماذج تتخذ هندسة فنية بآليات متنوعة أو ما يمكن الاصطلاح عليه :

أ- إتباع بسيط ب- إتباع فني

* **الاتباع البسيط** : وفيه تكرار يقوم علي إعادة منطوق صوتي بعينه وحجمه مرة ثانية، فتكبر العبارة لغويا وتقوى أصواتها سمعياً، وهي أمثلة لها دور في التواصل الاجتماعي على أنه محصور وقليل، على نحو ما أسلفنا في صفحات سابقة ؛ ولها عمر زمني قصير، ونسبياً تكاد تكون منعدمة في لغة المثقفين والرسميين، وحياتها ملحوظة في لغة الأطفال فان كبروا هجروها، من ذلك :

- صيغ ألفاظ الصوت والحركة : مثل (عَوْعَوْ) للكلب، و (كُوكُو) للديك، (دَنْ دَنْ) للجرس و (تك تك) للساعة، و (طاخ طاخ) للرصاص، و (تشك تشك) للقطار.

- صيغ المزاح والتَّفكه مثل : ((لولو)، (فيفي)، (سوسو)، (ميمي)، وأضرابها من التكرارات التخيلية في ألفاظ الألقاب.

وتعرف اللغات الأخرى هذه الآلية تماما في معجم لغات أطفالها من ذلك :-

في الألمانية : قولهم عن القروش Pinke-pinke، وعن الديك : Kuck-kuck، وعن الكلب vaw-vaw، وعن السيارة Puffe-puffe، وعن المُلَبَّس Bon-Bon.

* **الاتباع الفني** : ومنه في العربية نمطان حسب تقسيمنا السابق هما : (المزاوج والايقاعي)، ووجودهما خاص بالعاميات، وليس باللغة الثقافية، إذ لم تسجل كتب التراث الاتباعي سوى سبعة شواهد موثقة في نصوص عملية أدبية. وكانت منسوبة إلى امرئ القيس، وذي الرمة، وأبي جهيمة الهذلي، والرقبان الاسدي، والكميت، وابن ميادة. وهناك ثلاثة شواهد رجزية بلا نسب، وثمة ثلاثة نماذج لشواهد من الأمثال، وجميع هذا قد ذُكِرَ في عرض البحث. ولم نعثر على شواهد للاتباع في القرآن الكريم أو الحديث الشريف.

على أن هذا الاتباع عتب في اللغات الأخرى -في الانجليزية والألمانية- إلى مستوى اللغة الثقافية ومنه أن يقال : للْخَبْطَة (hokus-pokus) ، وللفَوْضي (techtel-mechtel)، وللدَمْدَمَة(rumble-bumble) وللشرَّاب (schorle-morle) وللهذيان (heck-meck) ،وللحركة (hurly -burly) وللهُراء (lari-fari) وللحكواتي (walke-talke) ، وللنشيط (wheeler-deeler)، وللَّطيف (hande-dandi) ، ومزاح مع "كارل" (charlie-warlie) ، ومزاح مع "رودي" (doddy-roddy) . ومنه في الماليزية في التعبير عن معنى أشياء مُلَخْبَطة (čerai-berai) ، و عن معنى المماحكة (teka-teki) ، وعن معنى التسلية بالماء (mandi-manda) ، ومنه في التركية في الدلالة على جيئة وذهابا (aramiš-tramiš) وفي الدلالة على المتفرقات من الملابس الشخصية (yatak-matak) ، وفي الدلالة على المتفرقات من الأثاث (Sandalia-mandalia) .

وفي اللغة العبرية (toho wa boho) ، أي (تيها وبيها) بمعنى "خربة وخالية". وهناك مثالان آخران وردا في العهد القديم دالين على كُنْية تفخيم لشخوص أعلام. وانتقلا إلى العربية من خلال القرآن الكريم وهما (يأجوج ومأجوج)، و(هاروت وماروت). وتذكر كتب التفسير العربية عن يأجوج وما مأجوج أنهما قبيلتان أو قبائل من خلق الله، وتورد في صفتهم وأخبارهم وعددهم معلومات ضافية، مستوحاة من الموروث العبري أو الموروث السرياني. ونحسب أن الصيغة العربية أقرب إلي الصيغة السريانية منها إلى العبرية حيث ترد هناك على وزان (gog magog) ولها علاقة بقصة البطولة التي أخذها الاسكندر المقدوني في فتوحاته الكبيرة في بلاد الشرق.

وفي سورة البقرة فيما بيَّنه القرآن من افتراء أهل الأهواء من اليهود وغير اليهود على سليمان من أمر "السِّحر" ترد قصة "هاروت وماروت" . وحسب التفاسير العربية فهما رجلان شُبِّها لانفرادهما بصفات محمودة في السِّحر، إما بالملائكة، وإما بالملوك. والقصة فوق هذا لها بعد تاريخي موغل في القدم، بحيث ينبغي أن تقارن بتلك الواردة عند الهنود في كتابهم المقدس "الڤيستا" (haurvatat-ameretat) وبتلك التي تذكر في الفارسية المتأخرة (hurdad-murdad) وبتلك في اليونانية (Orioch-marioch)، ويرجح أن الصيغة العربية جاءت محاكية للسريانية؛ ففيها يشيع بكثرة ذكر ربة السحر البابلية "ماروت" (mrota).

وأخيراً نذكر من هذه الإتباعات مُسَمَّى القَيْل اليمني (عَلْهان نَهْفان) والد الملك السبئي المشهور (شَعْرأَوْتر) ملك سبأ وريدان، وهو الملك الذي حارب الحبشان وغلبهم مراراً.[١٦]

٦- طاقة التعبير في مركبات الاتباع

ألمحنا فيما سبق إلى أن المساحة التي تشغلها أمثلة الاتباع محصورة جداً في النصوص العالية، وكل الأمثلة المُسْتَنْخلة فيما رويناه وسمعناه تؤكد بأريحية أن الاتباع من نسيج لغة العوام. فهناك استحباب ملحوظ لهذه العملية الكلامية، حيث تعيش أُمِّيَّةُ الثقافة، وحيث يحيا أدب الأذن لا أدب العين، وحيث الكلام يجري بلغة تَسْكُنُ الناس سليقة لا بالتعلم. وإذا كان الفكر الفصيح قد أنضج علوم البديع والبيان كوسائل تطريزية تخدم العملية الكلامية التي تجري على ألسنة أعيان الناس ومثقفيهم؛ فإن الفكر العامي بدوره له وسائله التطريزية الخاصة به، والاتباع بعض تلك الوسائل، إذْ ألفاظ الاتباع مُفْعَمَةٌ بالحيوية، ولها على ألسنة العوام حلاوة، وفي أذهانهم طلاوة، وهم يجتلبونها بعفوية وبدون انتباه، لتقوم بوظيفة المشافهة في الحياة اليومية عن المعاني التي تخدم : (لغة الطفل) في غرفة ألعابه، ودولاب ملابسه، وثرثرات لسانه و(لغة الكبار) عند قصدهم التسلية والتَّفَكُّه، أو عند قصدهم إبراز مشاعر الحيرة والانفعال والتلطيف والتدليل، أو عند قصدهم التعبير عن معان لها طابع السرعة وعدم انتظام الحركة، وهلم جرا من المعاني العامية، وثمة مسرد أسفله يسجل أمثلة الاتباع الواردة في كتب التراث العربي وتصفحها يوضح المعاني التي تساق من أجلها.

أ- جدول اتباع المزاوجة

أبنية صفات		أبنية صفات + أسماء					
فاعِل	فَعيل	فَعِل	فَعْلان	فُعَلَه	فَعْل	فَعَل	فَعال
هارب	هنيء	بطر	خزيان	وكلة	خب	أبد	حساس
قارب	مريء	أشر	سوآن	تكله	طب	سمد	مساس
باجس	غني	نذل	صلتان	لومة	غض	ثمر	هلاس
ماكس	ملي	رذل	فلتان	نومة	بض	كثر	سلاس
خائب	قسيم	وبر	عنتان	أمنة	غيض	شغب	قفار
هائب	وسيم	هبر	صفتان	أذنة	فيض	جغب	عفار
مائق	جديد	أرب		طلعة	عال	ندى	
دائق	قشيب	جرب		قبعة	مال	سدى	
سادح	سجيس	لحز			ساحة		
رادح	عجيس	لصب			داحة		
بادي	أسيف	وكح			شابة		
قادي	عسيف	شقح			ثابة		
واحد	سنيع	مرس			خسل		
فاحد	قنيع	ضرس			فسل		
سامك	طريح	رثع			جوع		
تامك	طليح	دنع			جوس		
ثاغية	حريب	هكع			قبش		
راغية	سليب	شكع			ربش		
سار	وحيد	هلع			بذ		
بار	قحيد	جشع			فذ		
خاسر	مطيع	ولع			شوب		
دامر	مسيع	تلع			روب		

ب- جدول اتباع الايقاع

حروف الاتباع	أبنية الصفات					أبنية الأسماء والصفات				أبنية الأفعال
	فاعل	فَعيل	فَعِل	فَعْلان	فُعَلة	فَعْل	فَعَل	فَعَال	فُعْل	
م	فاضح ماضح	عزيز مزيز	هذر مذر			غور مور	شذر مذر	حساس حساس	بلغ بلغ	
	حائل مائل	سليخ مليخ	ذعر معر			سهد مهد	نعد معد	هياط مياط		لا يُجدي ولا يمدي
	حارن مارن	بليل مليل	شذر مذر			خرش مرش				لايُدالس ولا يوالس
	خازن مازن	محيص مفيص	خضر مضر							لادَرْيت ولا تليت
	هانع مانع		صقر مقر			غوج موج				لا باركَ الله فيه ولا تارك
						هاج ماج				لاأهاتيك ولا أواتيك
						خير مير				لا يَخير ولا يمير + حيّاك الله وبياك
ب	حائر بائر	كثير بثير			هلعة بلعة	مس بس	حس بس			
						صخرة بحرة			حل بل	حظيت ورضيت وبظيت
	حاذق باذق	ضئيل بئيل				حدرة بدرة	شغر بغر		حس بس	مَالَه ؟ خصاه اللهُ وبَصاه ولَصاه
	صائك بائك	خصي بصي				نوكة بوكة	خظا بظا		عجر بجر	
						ملة بلة			عجل بجل	
						خاز باز				
						كظ بظ				
						حيص بيص				
						حوث بوث				
						هش بش				
						فظ بظ				
						لق بق				

تابع جدول ب

حروف الاتباع	أبنية الصفات					أبنية الأسماء والصفات				أبنية الأفعال
	فاعِل	فَعيل	فَعِل	فَعْلان	فُعَلة	فَعْل	فَعَل	فَعَّال	فُعْل	
						مهل بهل				
						ساخ باخ				
ل	سائغ لائغ	نويص لويص	شكس لكس	شيطان ليطان	همزة لمزة	كز لز	سبد لبد	نواق لماق	سيف ليف	
	ساغب لاغب	شقيح لقيح	سمج لمج		هكعة لكعة	فدم لدم	عبكة لبكة	قطاة لطاة		
	خائب لائب		دعب لعب		صممة لمة	هاع لاع	هيس ليس	كماج لماج		
	هائع لائع		عوز لوز			سامة لامة		وكاعة لكاعة		
			عوق لوق			هفت لفت		هواء لواء		
			وعق لعق			حاجة لاجة				
ن	جائع نائع	خبيث نبيث	حقر نقر	عطشان نطشان		رأمة نأمة	حيض نبض		رجس نجس	
	حائل مائل	ضعيف نعيف	،			تافه نافه	حقر نقر		ثقة نقة	
	عافطة نافطة	شخير نخير	نقه نقه							
أ		شحيح نحيح								
	حانة أنة	شديد أديد	أشر أفر	أشران أفران		عيص أيص	سغل وغل	ظلال ألال		
	خائل أئل	عريض أريض	عبد أبد	أسوان أتوان		عك أك		حصاة أصاة		
		كميص أصيص		عيمان أيمان			هشاش أشاش			
و+ي	تاعس واعس	فقير وقير	سغل وغل	حران يران		حار يار	هبر وبر	خراب يباب		
	١٨	١٧	١٦	٦	٤	٣١	١٢	١١	٨	

الهوامش

(١) أنظر في موضوع اللغة الموحدة (قضية التحول الى الفصحى ص٦٥)، و(في الأدب الجاهلي ص ١٠٣).

(٢) أنظر معالجات حول هذه المسألة، في (كتاب الانصاف في مسائل الخلاف ص٧٠)، و(في أصول التفكير النحوي ص ٢٨٩)، و(أوجه الخلاف في النحو لدى البصريين ص ١٠٠).

(٣) انعكست دراسة اللغة على الموضع الجغرافي عند العرب، وارتبطت الفصاحة بالبداوة، مما أسفر عن فقر شديد في تصور حاجات المدينة آنذاك، وعن غنى لا حد له في تصور لغة البادية، ونباتها وحيوانها، وأمكانها، وعادت أهلها بعكس ما عليه الأمر حالياً واستقر في ذهن البدو أن لغتهم حجة، فاستثمر النّابة منهم تلك الخصيصة، ووظف مهاراته اللغوية بضاعة تُشرى وتُباع وتُشد إليها الرّحال. فاذا تحضر البدوي فاستبدل بأكل الضب واليربوع أكْل المالح والبقل، والكواميخ والشواريز وغيره، مما تقدمه حواضر الأمصار فهو عندها يصير لين الجلد، وتهرب منه الفصاحة، ويكاد فعل اللغويين العرب بهذه الشاكلة يجعلهم بدعا بين علماء اللغات الأخرى. أنظر (الخصائص ٣/٣٠٤)، (التطور للسامرائي ص٢٢).

(٤) يتذكر المرء المدرسة اللغوية الكبيرة التي تشكلت في المستعمرة اليونانية بمصر في مدينة الاسكندرية. فقد كان لغويوها يرون الفصاحة والصحة اللغوية لا في لغتهم، بل في لغة موطن أسلافهم في اثينا. وظل حالهم كذلك زمنا طويلا يحاكون الأدب الأثيني ويعيدون له الجِدّة، وأثرت تقاليدهم في الرومان وفي السريان، وورث العرب التراث الثقافي لتلك الأمم في الشام والعراق ومصر، واتكأوا عليه كثيرا في المنهجة الأولى، ولم يتخلصوا منه نهائيا في استقلال منهجيتهم اللاحق، وانظر (حضارة الاسلام ص٢٣٠)، و (John Lyons P. 71).

(٥) أنظر مادة (ت، ب، ع) في معجمي التاج ومقاييس اللغة.

(٦) لمزيد من الفائدة نلملم أنواع الإتباع التي ترد عند غير اللغويين وهي :

أ. إتباع التَّسجْيع : وهذا فن متأصل عند العرب كثيرا، وشغف به عدا الشعراء كتاب كبار مثل : الامدي (٢٧١هـ)، والتوحيدي (٤١٤هـ)، و ابن شهيد (٤٢٦هـ). ومنه قول التوحيدي في المقابسات (ص ٥٨) : « والذي أقوله وأعتقده وآخذ به، أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر الا ثلاثة لو اجتمع الثقلان في تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد وهم : الجاحظ، والدينوري، والصابي".

ب. اتباع المُشاكَلة: وأُغرم به في القرن الرابع معظم كتاب الرسائل المطولة، واستطاع الصابي (٣٨٤هـ) أن يحقق لنفسه به مرتبة ترتفع على أقرانه من المسلمين إلى رياسة ديوان الرسائل في خلافة بني بوية، ورسائله موجودة، أنظر (النثر الفني ٣٦٣/٢) لزكي مبارك.

جـ. إتباع التَّجنيس : وله محل عال في نثر وشعر أدباء عصر الطوائف، وكثير ممن تعاطوه كانوا وزراء أو ذوي شأن مثل : الصاحب بن عباد (٣٨٥هـ)، والهمذاني (٣٩٢ هـ)، وابن العميد (٣٩٥هـ)، والخوارزمي (٣٨٣ هـ)، وانظر مكتوبات الخوارزمي في (مفاتيح العلوم ص٧٢).

د. إتباع المُماثلة (التّناسُب) : وهذا النوع له تماس بظاهرة المماثلة والمخالفة فهاتان الظاهرتان لهماتأثير في تشكيل البناء اللغوي في العربية، وقد تُرتكب لهما أمور من مخالفة الأصول، كما يلحظ في قضايا الإدغام والنَّبْر والإنسجام بين الأصوات والحركات والفاصلة القرآنية، ومن أمثلته :

- «أيتكُن صاحبةُ الجمَل الأدْبَب، تَنْبَحها كلابُ الحوأب» والقياس الأدبّ، والفكّ للمماثلة مع مأجورات. أشباه السيوطي (٢٠/١).
- «ارْجعن مَأزورات غير مَأجورات» أشباه السيوطي (٢٠/١).

وهمزة مأزورات للمماثلة مع مأجورات.

- «آتيك بالغَدايا والعَشايا» البيان في غريب القرآن (٢/٤٨١)، جَمْع غُدوة على غُدوات وليس على غدايا كما هي في التمثيل، ولكنه ورد كذلك للمماثلة مع عشايا.
- قراءة «الحمدِ لُله» بكسر الدال أو بضم اللام. برهان الزركشي (٤٣١/٣)، والقراءتان أثر من المماثلة الرجعية أو التقدمية بتأثير من قانون الخفّة وسرعة النطق.
- «وجئتُك من سَبأ بِنَبأ» بتنوين سبأ. اتقان السيوطي (١/١٨٤) وهذا بتأثير المماثلة بين الصوامت.
- ومما يرويه نحويونا الأولون: « هذا جُحرُ ضَبٍّ خَرِب» معاني الفراء (٢/٤٧) وهذه مماثلة تتبع الخفض الخفض. وانظر في هذه المسائل: (التطور النحوي ص ٢٨).

(٧) تذكر الاحصائيات لجذور معجم الصحاح أنها (٥٦٤١) مادة، ولجذور التاج أنها (٧٥٩٧) وفي إحصائيات ظافر يوسف يُذْكَر (٢٦٤) وزنا اسميا و (٤٤) وصفيا، وفي إحصائيات «فرتز» عن العبرية في لغة الجامعات يُذْكَر (٢٤٢) وزنا اسميا، (٤٣) وزنا للصفات.

(٨) نشطت في القرن الرابع الهجري اللغويات النظرية العربية، والتفت أهل الصنعة إلى الجوهر الحقيقي للغة كظاهرة مجردة، وقادهم ذلك إلى رؤى لغوية متقدمة في تفسير حركية اللغة، وكانت مسألتا «الاشتقاق والتأصيل» أبرز اهتماماتهم، وفي أوائل القرن العشرين اهتمت المدرسة الاستشراقية الألمانية بهاتين المسألتين كثيرا. عند جزينيوس، وفورست، وبروكلمان، ولاجارديه وبارت، وفرانكن برج، وهم الذين تأثر بهم المشرقيون أمثال: الشدياق، وجورجي زيدان، والكرملي والدومنيكي والعلايلي، وانظر رؤى سامية في الموضوع عند:

* Barth. J. Die Nominalbildung in den semitischen sprachen, P. 124.
* Frankeberg, W. Der Organismus der semitischen wortbildung. P. 74.

Delagarde, P. übersicht über die Bildung der Nomina, P. 25.

(٩) كان من ثمرة البحث اللغوي المتجدد في علم بناء الكلمات أن ظهرت مدرستان، مدرسة نظرية الأنساب «genealogisch» ومدرسة الأنماط التركيبية «Typologisch» والأولى تصنف اللغات إلى أسرات مثل السامية والحامية والسلافية والجرمانية وغيرها. الثانية رغم أنه لم يتحمس لها لغويون كبار بعد مؤسسها «Schlegel» إلا أنها مفيدة في إعطاء تصور عن فكرة عالمية اللغة فهي تقسم اللغات إلى لغات عازلة Isolating Languages ، ولغات الصاقية Agglutinative languages ولغات دمجية Synthetic languages ، ومعنى العزل : هو أن تضم اللغات كلمات مبنية على صورة ثابتة لا تبدل وتتحدد هويتها الصرفية من خلال علاقات التركيب وتكثر في الصينية، ولها أمثلة في العربية في الأدوات. والضمائر والحروف، ومعنى الإلصاق هو أن تكون الكلمات ملتصقة مع بعضها مع إمكانية لمح للصورة التاريخية الأسبق كما هو في التركية والكورية. ومن أمثلته في العربية : مركب الاتباع الإيقاعي وما يشبهه من المبنيات على فتح الجزأين. ومعنى الدمج أن تكون الكلمات ممتزجة في وحدة لغوية متينة يدركها أصحاب الصنعة اللغوية وتكثر هذه الطريقة في الفارسية والألمانية ، ولها أمثلة في العربية في المركبات المزجية، وأنظر :

David Crystal, Einfuhrug in die linguistik, P. 123.

(١٠) يعالج التكرار اللفظي في كتب التراث النحوي والبلاغي تحت مصطلح «التوكيد اللفظي» كما هو (في علوم البلاغة، ص ٣١٨)، و(من بلاغة القرآن ص١٤٣).

(١١) انظر وصف الأصوات السابقة : (علم الأصوات ص١٠٨)، (الأصوات اللغوية ص٤٢)، (علم اللغة العام ص١٣٦).

(١٢) النون صوت لازم في سور عدة من القرآن الكريم في الرحمن والحشر والعنكبوت

ويونس والأعراف. وحذف النون كي يتم النغم وتنسجم رؤوس الآيات ملحوظ كذلك في القرآن وبخاصة في وزن «فاعِلة» في الغاشية والواقعية والحاقة والنازعات.

(١٣) انظر فكرة التحويل الداخلي عند هنري فليس في (العربية الفصحى، ص ١٤١).

(١٤) أنظر (ت.ب.ع) و (ح.و.ث) في تهذيب الازهري والتاج ومعجم Lane.

(١٥) أنظر وصف الجيم قديما في « بقايا اللهجات العربية» لأنوليتمان في (مجلة كلية الآداب ١٩٤٨م). وفي المدخل إلى علم اللغة لرمضان عبد التواب ص٢٢١.

(١٦) أنظر في أمثلة الاتباع الأجنبية :-

Klaus Hansen, p. 5-31, wolfgang Fleischer. p 234, Arthur Jeffery, p. 283.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

ابن الأثير، ضياء الدين : **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ت. محمد البنا، القاهرة، ١٩٥٥.

ابن الأنباري، أبو البركات: **البيان في غريب القرآن**، ت.طه عبدالحميد والسقا، ١٩٧٠.

ابن جعفر، قدامة : **جواهر الألفاظ**، ت. محمد محي الدين، بيروت، ١٩٧٩.

ابن جني : **الخصائص**، ت. محمد النجار، القاهرة ١٩٥٢.

ابن حمزة، علي : **التنبيهات على أغاليط الرواة**، ت، الراجكوتي، القاهرة، ١٩٦٧.

ابن دريد : **جمهرة اللغة ،معجم**، طبعة بولاق، ١٣١٦ هـ.

ابن سيده : **المخصص في اللغة ،معجم**، طبعة بولاق، ١٣١٦ هـ.

ابن فارس :

* **الإتباع والمزاوجة**، نشر Brunnow في Giessen، ١٩٠٦.
* **مقاييس اللغة، ،معجم**، طبعة القاهرة، تحقيق، هرون، ١٣٦٦هـ.

ابن قتيبة :- **عيون الأخبار**، القاهرة، ١٩٧٣.- **المعاني الكبير**، طبعة القسطنطينية، ١٩٤٩.

أبو الطيب اللغوي: **الإتباع**، تحقيق، عزالدين التنوخي، مجمع دمشق، ١٩٦١.

الأزرقي : **أخبار مكة**، تحقيق، رشدي ملحس، بيروت، ١٣٥٢هـ.

الأزهري : **تهذيب اللغة ،معجم**، طبعة هارون، القاهرة، ١٩٦٤.

الأصبهاني، عمادالدين: **الفتح القسي**، ت. محمد صبح، القاهرة، ١٩٦٠.

الأنباري، كمال الدين : **الإنصاف في مسائل الخلاف**، ت محمد محي الدين، القاهرة، ١٩٥٣.

التوحيدي، أبو حيان :- **المقابسات**، تحقيق، محمد توفيق حسين، بغداد، ١٩٧٠.- **البصائر والذخائر**، تحقيق، ابراهيم الكيلاني، القاهرة، ١٩٦٤.

الخوارزمي : **مفاتيح العلوم**، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.

الدميري، كمال الدين : **حياة الحيوان الكبرى**، المكتبة الإسلامية، بيروت.

الدولابي : **الكنى والأسماء**، تحقيق، صلاح العربي، القاهرة، ١٩٧٠.

الزبيدي : **تاج العروس**، «معجم» طبعة القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

الزركشي : **البرهان في علوم القرآن**، ت، أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٥٧.

السيرافي : **أخبار النحويين البصريين**، ت. خفاجي، القاهرة، ١٩٥٥.

السيوطي :

- **المزهر في علوم اللغة**، ت. محمد أبو الفضل وآخرين، القاهرة، ١٩٥٨.
- **الأشباه والنظائر**، تحقيق، عبدالاله النبهان، مجمع دمشق، ١٩٨٥.

الفراء : **معاني القرآن**، تحقيق، محمد النجار، القاهرة، ١٩٥٥.

القالي، أبو علي : **الأمالي** : طبعة بولاق، ١٣٢٤ هـ.

الموسى، نهاد : **قضية التحول إلى الفصحى**، عمان، ١٩٨٧.

بدوي، أحمد أحمد: **من بلاغة القرآن**، القاهرة، ١٩٥٠.

برتيل، مالمبرج: **علم الاصوات**، تعريب عبدالصبور شاهين، القاهرة، ١٩٨٤.

برجستراسر : **التطور النحوي**، تحقيق، رمضان عبدالتواب، القاهرة، ١٩٨٢.

بشر، محمد كمال : **علم اللغة العام ،الأصوات**، القاهرة، ١٩٧٣.

ثعلب، احمد بن يحيى : **مجالس ثعلب**، تحقيق، هارون، القاهرة، ١٩٤٩.

جرونيباوم، جوستاف : **حضارة الإسلام**، ترجمة العبادي وجاويدي، القاهرة، ١٩٥٦.

حسين ، طه : **في الأدب الجاهلي**، القاهرة، ١٩٤٧.

ستتكفيتش : **العربية الفصحى الحديثة**، ترجمة، محمد حسن، القاهرة. دار النمر.

سليمان،فكري: **أوجه الخلاف النحوي لدى البصريين**، مخطوطة ماجستير بدار الألسن،١٩٨٣.

شاهين، عبدالصبور: **دراسة إحصائية لجذور معجم التاج**، جامعة الكويت ١٩٧٢.

ظافر، يوسف : **أبنية الأسماء المستدركة على سيبويه**، مخطوطة ماجستير بجامعة حلب، ١٩٨٤.

عبدالتواب، رمضان، : **المدخل إلى علم اللغة العربية**، القاهرة، ١٩٨٥.

ليتمان، أينو : **مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول** «مقالة» م ١٠، ج٢، سنة ١٩٤٢.

مبارك، زكي: **النثر الفني في القرن الرابع**، دار الجيل، بيروت

المراجع الأجنبية

Barth, J. : *Die Nominalbildung in den semitischen sprachen*, Leipzig, 1984.

Bunting, K. : *Einfuhrung in die Syntax*, Athenaum. 1979.

Crystal, D.: *Einfuhrung in die Linguistik*. Kohlhammer. 1971.

Delagarde, P. *Ubersicht uber die in aramaischen, arabischen, and hebraischen ublische.* Bildung der Nominea, 1889.

Fleiseher, W. *Wortbildung der deutschen Gegenwartsprache*, gessen 1886.

Fritz, W. *Die wortbildung der hebraischen adektiva*, wiesbaden, 1983.

Hansen, K. *Rein und Ablautverdoppelungen, in Zeitschrift. anglistik and Amerikanistik*, 12, 1964.

Jeffery, A, : *Foreign vocabulary of the Ouran*, Baroda, 1938

Lane, E. *An Arabic = Englisch - Lexicon*. Lebanon. 1968.

Lyons, J.: *Einfuhrung in die moderne Linguistik*, Munchen. 1984.